كتب

عن دار «ترانسكريبت»، صدر هذا العام كتاب جماعي بعنوان «أن تكون مسلمًا في الخطاب الأمني» يرصد الكتاب كيف يتعايش المسلمون في أوروبا مع أطروحة أمنية مفادها أنهم يمثّلون خطراً دائماً على المجتمع

إسلاموفوبيا حديثة وحجج من العصور الوسطى

طبقات متراكمة من العنصرية

زهير سوكاح

ما الشعور الذي ينتاب المرء حينما يعي أنه يتم تمثّله بوصفه «مشكلة» أمنية مُحتملة، فقط بسبب انتمائه الديني وخلفيته الثقافية؟ كيف يؤثر هذا الشعور على حياة مُسلمي الغرب تحديداً؟ وكيف يتعاملون معه في حياتهم اليومية وفي علاقتهم وفي عملهم؟ هذه الأسئلة وغيرها تحاول دراسة ألمانية حديثة التعاطي معها.

صدرت الدراسة هذه السنة عن دار «ترانسكريبت» بعنوان «أن تكون مسلمًا في الخطاب الأمني» وهي تنتمي إلى حقل الدراسات التطبيقية عن العنصرية. وعلى رأس مؤلفي هذه الدراسة نجد الباحثة إيمان عطية، المتخصّصة في حقل دراسات العنصرية إلى جانب كل من أوزان كسكينكيليك وبشرى أوكو. ويتألف هذا العمل من مُقدمة مُوجزة وخمسة فصول إلى جانب خاتمة وافية عن نتائجه.

في مقدمة الكتاب، ينطلق المؤلفون من فرضية مفادها أن للعنصرية ضد المسلمين عواقب قد تجاوزت التصوّر الغربي النمطي عن المسلمين من كونهم «غرباء» و«مشتبها» فيهم إلى ما صار يُشكّل ازدراءً مباشرًا بل ومُمنهجًا للإسلام والمسلمين حتى على المستوى المؤسساتي، وهو ما يسعى مؤلفو الكتاب إلى التحقق منه عبر دراسة «الخطاب الأمني» الألماني حول المسلمين السائد حالياً بوصفه عنصرية مؤسساتية لم تُنجز حول أشكالها ونتائجها كتابات علمية رصينة بالشكل المأمول.

في هذا السياق يُعرّف الكتاب «الخطاب الأمني» بكونه ممارسة هَيْمَنية مُمنهجة، يتم فيها مراقبة الأشخاص المنظُور إليهم كـ «مسلمين» وقياس مدى «انضباطهم» في المجتمع المُهيمن عن طريق استهداف سلوكهم وحركتهم في المجال العمومي بهدف إخضاعهم لما يُعرف بـ «الثقافة الرائدة»، وهو مصطلح مثير للجدل استحدثه بسّام طيبي، ويُفهم من خلاله هيمنة الثقافة الألمانية على باقي المكونات الثقافية للمجتمع الألماني.

في فصله الأول، يتّفق مؤلفو الكتاب أنه من الصعب الجزم علمياً أن أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر 2001 تشكل نقطة بداية للعنصرية ضد المسلمين كما يتم حالياً الترويج له، فتَمَثُّل الأقلية المسلمة كمشكلة قائمة، هو تقليد تاريخي طويل؛ فالتدابير الأمنية ضد المسلمين يعود معظمها إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر؛ ففي شبه الجزيرة الإيبيرية، كان على المجموعات السُّكانية المسلمة، أن تتحمّل بداية تدابير تقييدية مختلفة مباشرة بعد استيلاء الحُكام الكاثوليك على السلطة، ثم ما لبثوا أن أُجبروا على تغيير ديانتهم ليتم بعد ذلك ترحيلهم في نهاية المطاف إلى شمال أفريقيا. أيضاً يشير هذا الفصل إلى سياق تاريخي آخر من العنصرية الغربية والمُتمثّل في الاستعمار الأوروبي، والذي شهد تغيّرًا في التمثّل الغربي عن «المحمديين» في كل من «الشرق» و«أفريقيا»، حيث اتخذ التصور القديم عن «خطرهم» صيغة جديدة ارتبطت بالعنصرية الحديثة تجاههم.

يتضمّن الفصل الثاني تأملات وأفكارا حول مفاهيم مركزية ضمن هذه الدراسة، مثل: الحكامة والمواطنة والسياسة القومية والعنصرية المؤسساتية إضافة إلى تعريف بأشكال المقاومة الرمزية، التي تمارسها الأقليات ضمن المجتمع المُهيمن، وذلك بهدف إبراز الترابط الذي يراه مؤلفو الكتاب قائمًا بين العنصرية الحديثة والعنصرية القديمة. وفي هذا السياق يشير هذا الفصل إلى آليات إنتاج «معرفة» مجتمعية وثقافية محددة عن المسلمين غالباً ما يتم تكثيفُها في عنصرية جديدة معادية لهم، حيث يصير هنا لسيناريو التهديد مرة أخرى أهمية كبيرة، ممّا يجعل الترابط بين العنصرية الحالية المُعادية للمسلمين بكل من عنصرية ما قبل الحداثة وعنصرية الحداثة واضح المعالم، بحيث تبدو المواقف الحالية المُقدّمة على أنها «نقد» الإسلام وكأنها قادمة من العصور الوسطى بشكل لافت للنظر.

خُصّص الفصل الثالث للتطرق إلى المنهجيات المُستعملة في الدراسة. وعن مسوغات الدراسة التطبيقية يقول مؤلفو الكتاب أنه كان من الضروري أخذ الواقع الاجتماعي اليومي للمسلمين كنقطة انطلاق للدراسة الميدانية، ويضيف الباحثون أنه على مدار ثلاث سنوات انصبّ الاهتمام البحثي على نظرة وتعامل المسلمين أنفسهم مع الخطاب الأمني في ألمانيا؛ حيث طُرحت عليهم أسئلة مفتوحة، من مثل: كيف يستجيبون لمخاطبتهم باعتبارهم «تهديدًا» أمنيًا؟ وكيف يُموقِعُون أنفسهم حيال النقاشات والحوارات المجتمعية حول الأمن من أجل جعل اهتماماتهم واحتياجاتهم وخبراتهم مع العنصرية والتمييز مسموعة على نطاق أوسع؟

وهذا ما يُحاول الفصل الرابع الإجابة عنه عبر عرض مُفصّل لنتائج المقابلات الفردية مع المشاركين والمحاورات الجماعية في ما بينهم، وقد عبّر المشاركون في الدراسة عن شعورهم بالتمييز المُرتبط بالخطاب السائد حولهم بوصفهم تهديداً أمنياً؛ فبحسب شهاداتهم هم يواجهون العداء اليومي في الشارع، ويُعانون من التمييز المؤسسي في المؤسسات التعليمية، وفي سوق العمل والسكن وفي النظام الصحي، ويتعيّن عليهم التعامل مع تلك القضايا التي تبدو «إسلامية» وبالتالي «إشكالية» في الخطاب الأمني، بل ويتم حثُّهُم على اتخاذ مواقف من أفعال «المسلمين» الآخرين، والنأي بأنفسهم عن «أولئك» المسلمين «الأشرار» وإثبات أنفسهم باستمرار كمواطنين مندمجين ومستنيرين.

أما الفصل الخامس والأخير، فقد اهتم بعرض وتحليل «آليات الدفاع» لدى المشاركين واستراتيجياتهم (حتى الاستباقية منها) التي تحدثوا عنها في مواجهة تداعيات الخطاب الأمني حولهم. إن تجربة التشكيك الجمعي بل واليومي حيالهم على أنهم «تهديد» بسبب دينهم وانتمائهم الثقافي لها تأثير عميق على مشاعرهم وصورتهم الذاتية، بل وحتى في تفاصيل حياتهم اليومية (مثل الأماكن التي يُظهرون فيها وجودهم أو تلك التي يتجنّبونها، وممارستهم لتدينهم وكيفية لباسهم واستعمالهم للغاتهم الأصلية في المجال العمومي). غير أن هذا الفصل يَخْلُص أيضًا إلى أن الأقلية المُسلمة ليست دائماً مُجرد موضوعات «جامدة» لسلطة فوقية، حيث عبّر بعض المشاركين عن الطبيعة الغنية لاستجابتهم أثناء مخاطبتهم كمسلمين، فغالبًا ما يُنوّعون خصائص هويتهم «المسلمة» حينما يُضيفون إليها هويات فرعية من مجالات النوع والطبقة والتعليم والهجرة والثقافة والعرق واللغة، ولون البشرة والدين والكفاءة والعمر.

تنقسم خاتمة الكتاب إلى شقين رئيسين؛ يضم الشق الأول خُلاصات مُركّزة للنتائج المتوصل إليها، ولعل من أهمها أن تاريخ الإرهاب الحديث ليس هو تاريخ الجماعات الإسلاموية كما يُصّورها الخطاب الأمني، لا سيما وأن الأشكال الأخرى من عنف الدولة وغيرها تنطوي بدورها على مخاطر أكبر من الناحية الإحصائية على الأمنين الداخلي والخارجي. وفي الوقت ذاته، فإن العنف العنصري واليميني المتطرف المُوجّه ضد المسلمين لا يزال يتم النظر إليه على أنه فردي وهامشي بل ويتم التقليل من شأن النقد الموجه بصفة عامة نحو العنصرية التي تستهدف المسلمين بل ويتم اللجوء عبر الإعلام إلى تشويه مصداقية هذا النقد. في حين أن الشق الثاني يقدم توصيات وتصورات نحو حكامة أكثر مواطنية في ألمانيا لا تقيم فروقات بين المواطنين ولا ترمي الأقليات العرقية والدينية بعدم الولاء.

(باحث مغربي مقيم في ألمانيا)

نقصٌ بَحثيّ

رغم أن الثقافة العربية باتت توفّر مساحات واسعة لنقد السلطة، إلا أننا نقف على نقص واضح في توجيه نقد علميّ صريح موجّه للمؤسّسات، وخصوصاً منها أجهزة الأمن. مقابل ذلك يوجد تضخّم في المادة الأدبية في تناول علاقة أجهزة السلطة بالمواطنين، والتي تبدو معظم الوقت قمعية. تفكيك هذا القمع يحتاج إلى رؤية يمكن أن يوفّرها البحث العلمي.

يوجد في الغرب ازدراءٌ مُمنهجٌ أكثر فأكثر ضد الإسلام

يُعرّف الكتاب بأشكال المقاومة الرمزية التي تعتمدها الأقليات

رجل أمن ألماني يتابع حملة توعوية لدعم المهاجرين واللاجئين، برلين 2018 (Getty)

نظرة أولى

بترجمة فتحي إنغزو، صدرت عن منشورات «صوفيا» النسخة العربية من كتاب «**الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية**» للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، وهو آخر عمل نشره بنفسه، وكان ذاك في عام 1798، بعد أعمال مرجعية مثل «فقد ملكة الحكم» و«نقد العقل المحض»، و«ما التنوير». في مقدّمة الكتاب، يقدّم المترجم إضاءة على تلقي نص كانط الأخير مشيراً إلى صعوبة فهمه لدى معاصريه مثل غوته وشلايرماخر. يقول المترجم في التقديم: «كتاب هو بين فشل عظيم لعجوز صار تقريباً في عزلة تامة عن العالم والناس، ونجاح لما يبصر به من مصير حتمي للبشرية الحديثة».

عن منشورات «هوبفول مونتسير» في تورينو، ظهرت النسخة الإيطالية من رواية «**سِفر الاختفاء**» للكاتبة والصحافية الفلسطينية الزميلة ابتسام عازم، بترجمة باربارا تيريسي. صدر العمل لأوّل مرة عن منشورات «الجمل» عام 2014، وجرى نقله العام الماضي إلى الإنكليزية؛ وفيه تروي مؤلّفة «سارق النوم: غريب حيفاوي» (2011) سيرة ثلاثة أجيال عاشت احتلال مدينة يافا، كما تتخيّل، على لسان إحدى الشخصيات، اختفاءً مفاجئاً للشعب الفلسطيني من أرضه؛ اختفاء لم تستطع كاميرات وأجهزة الاحتلال رصده أو تفسيره، ما يسبّب حالة من الذعر تجتاح الإسرائيليين.

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدرت النسخة العربية من كتاب «**مقالات في علم الاجتماع الاقتصادي**» لماكس فيبر، بترجمة ابتسام خضرا، وهو كتاب جمع فيه ريتشارد سويدبرغ مقالاتٍ وضعها عالم الاجتماع الألماني وصدر بالإنكليزية عام 1999. يتناول الكتاب الرأسمالية الحديثة وعلاقاتها بالسياسة، القانون، الثقافة، والدين، حيث يدرس عالم الاجتماع الألماني (1864–1920) الفعل الاجتماعي من خلال فهم السلوكيات الفردية والجمعية وما تشكّله من قيَم وثقافة عند تحليله الظاهرة الاقتصادية، خلافاً لهيغل وماركس اللذين غلّبا الفكر الجماعي.

«**فوكو في وارسو**» عنوان الكتاب الذي صدر حديثاً للباحث البولندي ريميغيوس ريزينسكي عن «منشورات أوبن لتر». يعود الكتاب إلى زيارة المفكر الفرنسي (1926 - 1984) إلى العاصمة البولندية عام 1958 وإقامته فيها نحو عام خلال عمله على أطروحته «تاريخ الجنون»، حيث يضيء تلك المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية وما تركته من تداعيات في السياسية والثقافة، وصولاً إلى مجتمعات المثليين التي انخرط فيها فوكو آنذاك، بالاستناد إلى مقابلات أجراها المؤلّف مع عدد من الشخصيات التي عايشت تلك الزيارة، وتحقيقات الشرطة السرية التي كانت تراقبه.

صدرت حديثاً عن «الدار المصرية اللبنانية» طبعة جديدة من كتاب «**محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية؛ الدولة الأموية**» للشيخ محمد الخضري بك، بتحقيق وتعليق محمد إبراهيم أحمد. يتضمّن الكتاب مجموعة محاضرات ألقاها المؤرخ المصري (1872 - 1927) بعد افتتاح «الجامعة المصرية» حيث أسند إليه تدريس مادة التاريخ الإسلامي، فوضع مجموعة دراسات تمّ جمعها لاحقاً في مجلّدين، خصّص الأول للأمويين والثاني للعباسيين، وفيه عرضٌ وتحليلٌ لأحداث تاريخية اختلط فيها الدين بالسياسة والاقتصاد والاجتماع، تعكس رؤيته نقدية في التعامل مع المادة التاريخي.

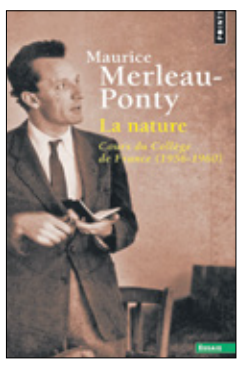

صدرت أخيراً عن منشورات «بوان» في باريس طبعة جديدة وموسّعة من محاضرات الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلو بونتي التي ألقاها في «كولّيج دو فرانس» بين عام 1956 و1960، تحت عنوان «**الطبيعة**». يضمّ هذا العمل ـ الذي جرى جمعه من ملاحظات الطلاب الذين حضروا دروس ميرلو بونتي ـ تحليلات صاحب «مديح الفلسفة» حول تعامُل الفلسفة والفكر الغربيين مع مفهوم الطبيعة، منذ أرسطو حتى فرويد، متوقّفاً أيضاً عند مقاربة عُلوم الأحياء له. تمثّل هذه الدروس إحدى آخر الوثائق التي تركها ميرلو بونتي (مواليد 1908)، وهو الذي رحل بشكل مفاجئ عام 1961.

في كتابه الصادر مؤخراً عن «خطوط وظلال»، بعنوان «**رحلة في السينما الفرنسية**»، يقدّم الباحث الأردني ناجح حسن تاريخ الفن السابع من زاوية بلد مؤسس لهذا الشكل التعبيري الحديث، حيث يرصد تحوّلات الصناعة السينمائية من اختراع آلات التصوير السينمائي مع الأخوين لوميير إلى مرحلة الإشعاع التي ترافقت مع ثورات الستينيات الثقافية، وصولاً إلى الخفوت الذي عرفته السينما الفرنسية، والأوروبية عموماً لصالح الصناعة السينمائية الأميركية. يفسّر المؤلف من خلال التاريخ الفرنسي لماذا تحوّلت السينما إلى ظاهرة اجتماعية كبرى في القرن العشرين.

عن «منشورات جامعة يال»، صدر حديثاً كتاب «**قصّة العمل: تاريخ جديد للنوع البشريّ**» للمؤرّخ الهولندي يان لوكاسّن. تقدّم الدار هذا الكتاب بوصفه «أوّل تاريخ عالميّ حقّ حول العمل»، وفيه يسجّل لوكاسّن تمظهرات الشُّغل وطُرق تنظيمه في مختلف العصور، من الصين والهند إلى أوروبا والأميركتيّتَيْن، مروراً ببلاد الشام والعراق. يتتبّع المؤلّف العمل منذ أولى أشكاله قبل 700 ألف عام، وصولاً إلى يومنا هذا، ومروراً بمراحل مهمّة، مثل بدء تقسيم المهامّ بدءاً من 10 آلاف عام قبل الميلاد، ودخول عصر الصناعة بدءاً من عام 1800.